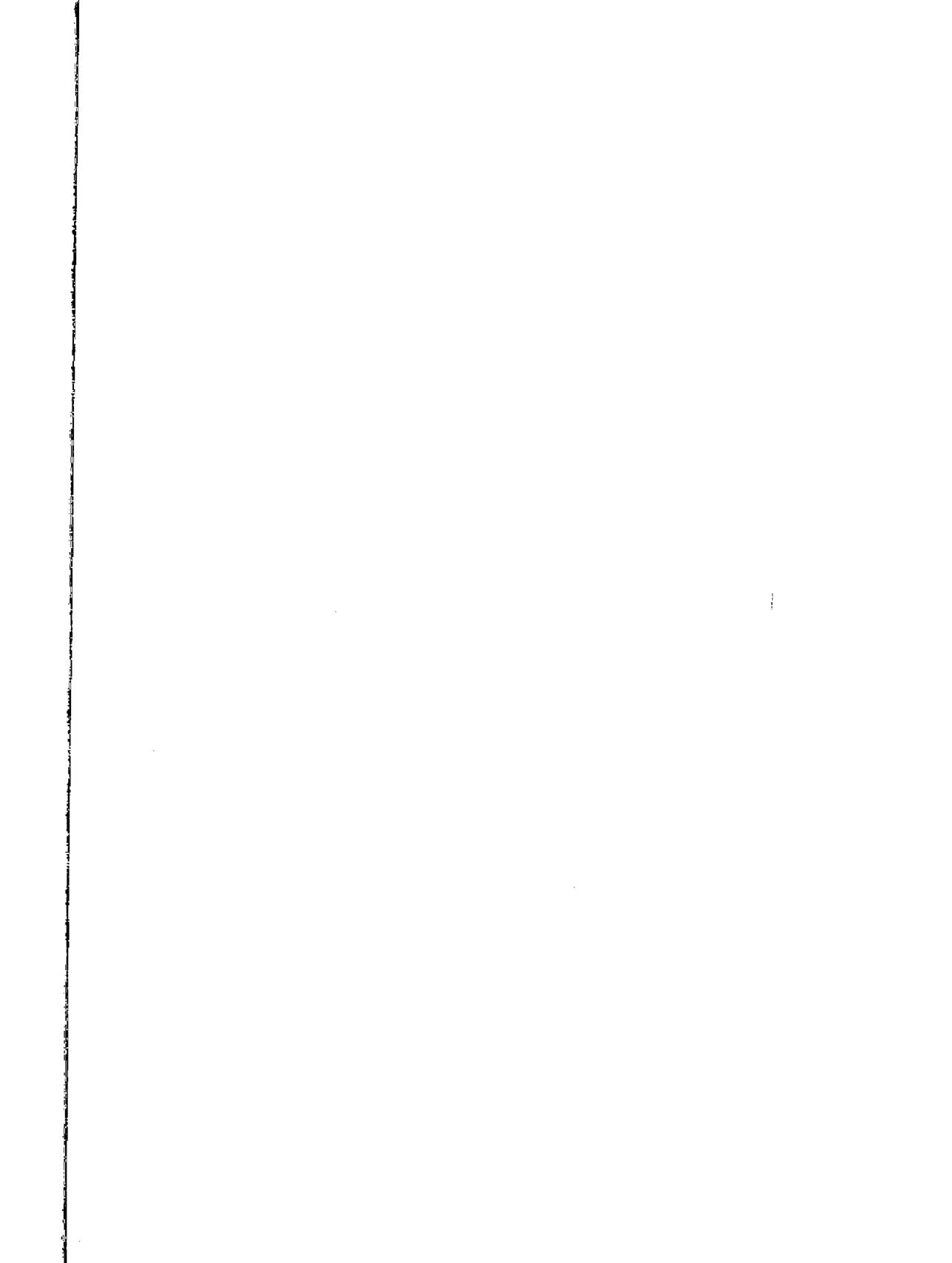


الكتاب الثالث

المذاهب الفنية فى الأندلس ومصر



الفصل الأول

الأندلس والمذاهب الفنية

١

الأندلس

تقع الأندلس في الطرف الجنوبي الغربي من أوربا وهي تؤلف شبه جزيرة كبيرة تفصلها عن بلاد الغال في الشمال سلسلة جبال البرانس كما يفصلها عن أفريقيا في الجنوب زقاق ضيق هو مضيق جبل طارق ، بينما يقع في غربها هذا المحيط الواسع الذي كان في العصور القديمة والوسطى يشبه صحراء مائة لانهاية لها ، ونقصد المحيط الأطلسي الذي سماه العرب باسم بحر الظلمات ، أما في شرقها فيقع بحر الروم الذي كان صلته بالمدينيات الفينيقية واليونانية والرومانية ثم العربية . وقد سكن الأندلس - أول الأمر - أقوام من البسك والسلت والجلالقة ، وأتى عليها حين من الدهر ، وهي منعزلة عن الحضارات القديمة ، ولكن سرعان ما أتاها قبس من هذه الحضارات عن طريق الفينيقيين واليونانيين الذين استعمروا بعض جهاتها ، ولما نشب الصراع بين روما وقرطاجنة الفينيقية وانتصرت الأولى على الأخيرة استولت على ممتلكاتها ، وضمت الأندلس - فيما ضمت - بين جناحها - وسمتها إسبانيا اسمها المعروف الآن . ومنذ ذلك الوقت أصبحت إسبانيا ولاية رومانية ، ونشرت روما بها المسيحية كما نشرت بها لغتها اللاتينية ، وكان ذلك سبباً في أن ساهمت الأندلس - من بعض الوجوه - في التراث اللاتيني القديم ، غير أن موجات القبائل الجرمانية لم تلبث أن اندفعت إلى الأندلس ، إذ أغار عليها قبائل الفندال ، وأسسوا بها دولة أقاموها على نهر الوادي الكبير سموها باسم دولة الفندال ، ومن اسم هذه الدولة اشتقت كلمة الفندالس التي حورها العرب إلى كلمة أندلس ، وأطلقوها على تلك البلاد

جميعاً ، وأقبلت بعد الفئدال موجة جديدة جرمانية هي موجة القوط ، وتم لها الغلب على الموجة القديمة موجة الفئدال ، وحكمت البلاد من القرن الخامس الميلادى حتى فتحها موسى بن نصير فى أواخر القرن السابع (عام ٩٢ هـ) .

وكان جيش موسى مؤلفاً من العرب والبربر إلا أن البربر كانوا أكثر نفراً ، ولما سمع العرب والبربر جميعاً بنحسب الأندلس وما فيها من كنوز ومعادن أكثر وا من الرحلة إليها ، وقد رحلوا ومعهم خصوصاتهم التى نعرفها بين القيسية والبنية ، وأضافوا إليها خصوصيات أخرى كانت تنشأ دائماً بين العرب والبربر . وليست هذه الخصوصيات هى كل ما فى الأندلس ، فقد كانت هناك خصوصيات أخرى دائمة بين الجيوش النازحة من العرب والبربر وبين سكان البلد الأصليين ، ومن المعروف أن العرب تساحوا فى إسبانيا مع سكانها وكان من نتيجة هذا التسامح أن ظل للمسيحيين هناك نظام خاص فى تقاضيتهم ومعاملاتهم ، وبذلك كان لهم بروزهم فى الهيئة الاجتماعية ، بل لقد كانت بعض البلاد - وخاصة الشمالية - مسيحية خالصة ، مما ساعد على قيام الفتن الدائمة بين المسيحيين والمسلمين ، وكان كثير من الشبان المسيحيين يستشهدون فى سبيل دينهم بصور فدائية مختلفة كأن يذهبوا إلى المسجد الجامع فيسبوا الدين الإسلامى ! وقد عرض « دوزى » فى كتابه (تاريخ مسلمى إسبانيا) لهذه الظاهرة .

وقد كانت الأندلس فى العهد الأموى يحكمها ولاة مختلفون ، حتى إذا قامت الدولة العباسية رأينا عبد الرحمن الداخل يفرُّ إليها ويؤسس بها دولة أموية تعتبر امتداداً للدولة الأموية فى المشرق ، تلك الدولة التى قوضها العباسيون ، وقد سمي أبو جعفر المنصور عبد الرحمن باسم صقر قریش ، وهو جدير بهذه التسمية ، فقد استطاع أن يقيم لنفسه هناك دولة استمرت فى أبنائه وأحفاده من عام ١٣٨ هـ إلى عام ٤٢٢ هـ ، وكان عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) من أزهى عهود هذه الدولة ، وكذلك عهد ابنه الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) وعهد الوزير المشهور : المنصور بن أبى عامر المتوفى عام ٣٩٢ هـ ولكننا لانترك هذه العهود كلها إلى القرن الخامس حتى تضعف الدولة وتختل ،

فيقوم نظام جديد هو نظام ملوك الطوائف ، وفيه تنقسم الأندلس الكبيرة إلى أندلسيات صغيرة ، ففي كل بلد كبير تظهر دولة مثل دولة المعتمد بن عباد في إشبيلية وابن الألفس في بَطْلَسْيُوس وذي النون بطْلَيْطَلَة ، وقد أدى ضغط المسيحيين في الشمال على هذه الأندلسيات أو هذه الدويلات أن تفرغ إلى دولة المرابطين في المغرب فتُلَبِّيها وتحتل البلاد للدفاع عن المسلمين هناك ، ثم تدخل الأندلس في حوزة دولة الموحدين ، ويظهر بنو هود في أوائل القرن السابع الهجري ثم بنو الأحمر ملوك غرناطة . وتستمر هذه الدولة الصغيرة في معارك مع المسيحيين حتى تخرب جميع الأعلام التي تبقت للعرب في الدروب الباقية من الأندلس ، ويضطر من بقي إلى مغادرة البلاد بعد هذه الحقب المتطاولة التي قضاهها العرب هناك حيث أقاموا حضارة عظيمة لا تزال آثارها ماثلة في مباني غرناطة وغيرها من المدن الكبيرة .

٢

شخصية الأندلس

تبدو الأندلس من الوجهة الجغرافية وحدة متجانسة ، ولكن من ينم النظر يجد أن هذه الوحدة تطوى في داخلها وحدات متباينة ، لكل وحدة شخصياتها الجغرافية المستقلة : هناك وحدة على ساحل بحر الروم تتأثر بجو ومناخه ، وأخرى على ساحل المحيط تتأثر بجو ومناخ آخر ، وثالثة تتوسط الوحدتين ، وهي هضبة مرتفعة تمخاها سلاسل من الجبال كما تمخاها طائفة من الأنهار يصب بعضها في المحيط وبعضها في البحر المتوسط . وهذه الشخصية الجغرافية للأندلس كان لها تأثير واضح في شخصيتها السياسية ، فإن انقسام البلاد على هذا النحو إلى وحدات متباينة أنتج فيها - مع مرور الزمن - فكرة الاستقلال المحلي ؛ فكل إقليم يُحس أنه مباين للآخر وأنه في حاجة إلى الاستقلال السياسي على نحو ما هو مستقل استقلالاً جغرافياً ، وساعد على نمو هذا الشعور في نفوس

الأندلسيين أنهم كانوا من أجناس مختلفة ، ففهم بسك وسكنت وجلالقة وندال وقوط وفينيقيون ورومانيون وعرب وبربر . وهذا الخليط المتباين من شأنه أن لا يمتزج وأن يظل فيل خلل يدعو الناس للثورة والفتن وسفك الدماء ، ويكاد الإنسان يؤمن بأنه لم تَخْلُ بقعة في الأندلس في أثناء الحكم العربي من دم مسفوح .

وليس كل ما يميز الحكم العربي في الأندلس كثرة الفتن والثورات ، فهناك مميزات أخرى طريفة ، لعل من أهمها قوة رجال الدين إذ كانوا يقومون من الأمراء مقام المعارضة ، وكانوا كثيراً ما ينقدون ما يقررونه هم ومجلس وزرائهم من ضرائب فادحة ، وكانوا يستشارون في شئون الحكم عامة ، فإذا جاء أمير وحاول أن يقلل من نفوذهم ثاروا عليه على نحو ما كان من ثورتهم عام ٢٠٦ على الحكم الأول . ولما ثار رجال الدين حينئذ ثار معهم أهل قرطبة . ومعنى ذلك أن الشعب في الأندلس كان يحاول أن يدافع عن حقوقه ، وأن يعلن هذه الحقوق في شكل ثورة إن لم يستجب إليها الحكام استجابة سليمة ، وأوضح ذلك صاحب نفع الطيب إذ يقول : « الأغلب عند الأندلسيين إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يابج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعاؤون بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في أخبارهم ، وأما الرّجْم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكل يوم » (١) .

وبجانب ذلك نجد للأندلس العربية شخصية اجتماعية تميزها - إلى حد ما - عن شخصية المشرق ، ويبدو ذلك في جانبين ، أما أولهما فكثرة الغناء والحلقات التي أهلت لظهور الموشحات والأزجال هناك ، وأما ثانيهما فمساهمة المرأة في الحياة الأدبية مساهمة تجعلنا نذكر سيدات فرنسا من صواحب المتتديات (الصالونات) في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكلنا نعرف أخبار ولادة بنت المستكفي مع ابن زيدون وغيره من أدباء الأندلس . على أن هذا ليس معناه

(١) نفع الطيب (طبع بولاق) ١٠٣/١ .

انفصال الأندلس انفصالاً تاماً من المشرق في حياتها الاجتماعية ، فقد كانت تتصل بها وكانت تأخذ منه كثيراً حتى في غنائها ، إذ نجد زرياب تلميذ إسحاق الموصلي يبدأ حركة الغناء هناك ، ويقولون إنه نقل إلى الأندلسيين - مع غنائهم - كثيراً من آداب المشاركة في طعامهم وثيابهم وأدوات زينتهم^(١) ، وبما لا ريب فيه أن ذلك يوضح صلة ما بين الأندلسيين والمشاركة ، ولكن على كل حال كانت لهم حياتهم الاجتماعية الخاصة .

وإذا كانت الشخصية الاجتماعية للأندلس تتميز من الشخصية الاجتماعية المشرق فإن شخصيتها العلمية على الضد من ذلك ، إذ كان الأندلسيون يعتمدون في هذا الجانب اعتماداً شديداً على ما يأتيهم من المشرق ، ونحن نعرف أن الكثرة من أهل الأندلس في القرون الأولى للفتح العربي كانوا نصارى وكانوا يتكلمون اللاتينية العامية في حياتهم اليومية ويصطنعون اللاتينية الممتازة في كتاباتهم وخاصة في الكنيسة وما يتصل بها ، ولكن هذه اللاتينية الممتازة لم يتسرب منها شيء واضح للغة العربية في الأندلس . على أننا لا نصل إلى القرن الرابع حتى نجد أهل الأندلس يهجرون اللاتينية ، ويتخذون اللغة العربية مكانها حتى في طقوسهم الدينية^(٢) . ومهما يكن فإن عرب الأندلس لم يفيدوا شيئاً واضحاً في حياتهم العلمية عن طريق الأندلس نفسها بل جل ما أفادوه أتاهم من المشرق إذ نقلوا الثروة العلمية المشرقية إلى بلادهم بكل ما فيها من فقه ودين ولغة ونحو وفلسفة وطب ، وساعدهم في ذلك الخلفاء الأمويون وعلى رأسهم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الذي يقال إنه كان يمتلك مكتبة تضم مائة ألف مجلد . ولما سمع المشاركة بتشجيع الدولة الأموية في الأندلس للعلم أخذوا يفنون هناك زرافات ووحلداً ابتغاء المجد والشهرة العلمية ، وكان الأندلسيون أنفسهم يستبقون في الرحلة إلى المشرق للتزود من ثقافته ومنابعه العقلية . وعقّد صاحب

Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, (٢)

p. 415.

(١) انظر ترجمته في نفع الطيب ٧٤٩/٢

وانظر أيضاً في ذلك كتاب : R. Dozy,

Histoire des Musulmans d'Espagne, 1,

p. 312.

نفتح الطيب فصولاً طويلاً استعرض فيها من رحلوا من الأندلس إلى المشرق ومن المشرق إلى الأندلس ، ومن هذه الفصول نتيبن الصلة الشديدة بين الجانبيين .

ومن يتابع الحركة العلمية في الأندلس يجد أن الأندلس كانت في القرون الأولى للفتح الإسلامي بطيئة في تلقي الحياة العقلية ، وعُنيبت في أول الأمر بالعلوم الدينية واللغوية ، أما العلوم الفلسفية فكانت تنفر منها ، لما فيها من زندقة ، وكان ملوكهم كثيراً ما يأمرّون بإحراقها إذا وجدوها . « وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه »^(١) . ولعل ذلك هو سبب بقاء ظهور المتفلسفة هناك ، فإن أول فيلسوف أندلسي هو ابن باجة المتوفى عام ٥٣٣ هـ ، وكان بقاءه تناولهم الفلسفة وما يتصل بها من منطلق أثر في أن عتمولهم لم تصطبغ بالصبغة العلمية التي تؤهلهم لوضع دراسات نظرية كبيرة ، ولعل ذلك نفسه كان أحد الأسباب التي من أجلها لم تظهر عندهم دراسات أدبية جيدة .

وإذا كانت الأندلس لم تتميز في شخصيتها العامة بصفات واضحة تفصلها من المشرق ، بل كانت تؤسس على الأصول المشرقية حركتها العلمية ، فإنها كذلك في شخصيتها الأدبية كانت تؤصل حركتها الفنية على الأصول المشرقية حتى ليقول صاحب الذخيرة في مقدمته لهذا الكتاب الذي عني فيه بدراسة أدباء الأندلس في القرن الخامس للهجرة : « إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعتى بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، بلثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً » . وقد كتب ابن شهيد رسالة التوايح والزوايع وعرض فيها لشياطين الشعراء والكتاب الذين أجازوه ، وكانهم من شعراء المشرق وكتابه^(٢) ، وكانوا لا يزالون يرددون حتى عصر ابن خلدون في القرن

١ . كلية الآداب بجامعة القاهرة (١/٢١٠) .

(١) نفتح الطيب (١/١٠٤) .

(٢) انظر الرسالة بأكملها في الذخيرة (نشر)

الثامن للهجرة أن « أصول علم الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي على القالى البغدادي »^(١) . وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما أحست قوافل العرب فى الأندلس أنها افتقدت حياتها وأصولها جميعاً فى أثناء سفرها من المشرق فرجعت تستعيد هذه الحياة من شعره ونثره ، وساعد على ذلك كثرة الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق وبالعكس ، كما ساعد عليه رحلتهم السنوية إلى مكة والمدينة للحج . وكل ذلك جعل الأندلس تندمج فى الكتلة العربية إذ كانت طوابع الحياة الأدبية فيها - من الوجهة العامة - هى نفس طوابع المشرق ، وإن ظهر اختلاف فى الفروع لا فى الأصول ، فإن الأصول كانت أقوى وأعمق من أن تتأثر بالفوارق الإقليمية .

٣

النثر الأندلسى

رأينا الأندلس تندفع نحو تقليد المشرق فى علمه وأدبه ، وكان هذا الاندفاع طابع الأقاليم العربية عامة ، فهى جميعاً تتجه نحو الأم ، نحو بغداد ، تتغذى منها ، وتستمد صفاتها وخصائصها ، ومهما غربت وأبعدت عن بغداد فالخصائص الكبرى للأدب العربى فى كل إقليم من أقاليمه واحدة ، وكأنما اللغة العربية لا تعرف الاعتداد بالمكان ، ولا تعتد به بل قل هى تعرفه ، وتعتد به ، ولكنها لا تقيم وزناً كبيراً لهذه المعرفة ولا لهذا الاعتداد ، بل إنها لتقسو على الأقاليم التى تدخلها ، فإذا أبناؤها لا يتصلون بها إلا اتصالاً بعيداً ، أما اتصالهم القريب فإنما هو بالتماذج الأدبية الممتازة التى اصطنعتها العربية لنفسها فى بغداد

(١) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية)

والمشرق . ومن أجل ذلك كنا لا نجد فروقاً جوهرية بين نماذجها في العراق وفي بلد كالشام ومصر ، وحتى الأندلس لا نحس فيها أننا بدأنا بجوالمشرق العام جواً يختلف عنه تمام الاختلاف . ونحن لا ننكر أثر الإقليمية من حيث هو ، فداًئماً توجد في كل إقليم صفات تميز أدبه بعض التميز من أدب الأقاليم الأخرى ، ولكن ينبغي أن لا ننزلق من ذلك إلى القطع بأن الأقاليم العربية أوجدت لأنفسها آداباً متخالفة بتخالفها ، فإن ذلك إنما ينزلق إليه من لم يقرأ شيئاً في آداب هذه الأقاليم فتراه يعتمد في حكمه على الحدس والتخمين كأننا بإزاء مسألة ميتافيزيقية ، أما الذين يكفون عقولهم عن مثل هذه الفروض لاجئين إلى الحقائق الحسية الصحيحة يستمدون منها أحكامهم وآراءهم فإنهم يعرفون أن جملة النماذج التي كوَّنها الأدب العربي في أي إقليم من أقاليمه لا تختلف اختلافات واسعة عن النماذج الأساسية لهذا الأدب التي كوَّنها في المشرق .

على أنه ينبغي أن نلاحظ ظاهرتين مهمتين تتصلان بالنثر الأندلسي ، أما الظاهرة الأولى فهي أن هذا النثر لا يظهر فيه كاتب كبير قبل القرن الرابع للهجرة ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن الشخصية الأدبية للأندلس لم تتكامل إلا في هذا القرن . وكان الناس قبل ذلك يكتبون نثراً ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يرتفع بنثره إلى درجة تجعله يقف في صفوف كتاب العصر العباسي الممتازين . والحق أن الأندلس تبدأ نهضتها الأدبية منذ القرن الرابع وعهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ، ذلك العهد الذي أُلّف فيه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وأُملي فيه كتاب الأمل ، أملاه أبو علي القالي في قرطبة . ومنذ ذلك العهد المزدهر أخذت الأندلس تشعر بشخصيتها وتحاول أن تصور هذه الشخصية في آثارها ونماذجها الأدبية ، وهذه هي الظاهرة الأولى . أما الظاهرة الثانية فهي أن الأندلسيين لم يستحدثوا لأنفسهم مذهباً جديداً في تاريخ النثر العربي يمكن أن نضيفه إلى المذاهب الثلاثة السابقة التي كوَّنها هذا النثر في المشرق ، فقد وقفوا عند المحاكاة ، وهي محاكاة اضطرتهم إلى ضروب من الخلط ، إذ ترى الكاتب الواحد يجمع في نماذجه بين المذاهب الثلاثة التي رأيناها في المشرق ،

فتارة يصنع لنفسه نموذجاً من ذوق أصحاب الصنعة ، وتارة يعطل عن ذلك إلى ذوق أصحاب التصنيع ، وتارة ثالثة تراه يعطل إلى ذوق أصحاب التصنيع . وقد فُتنت كثيرهم بالسجع ، ولكنها لم تفتن بالبديع الذي كان يصحبه عند أصحاب التصنيع ، بل فتنت - إلى حد ما - بالغريب الذي رأيناه عند أصحاب التصنيع ، كما فُتتوا بالأمثال ، وربما كان لكتاب الأماشي للقالى أثر مهم في ذلك ، فقد بناه صاحبه على هذين الجانبين . ونحن نقف عند أهم كاتب ظهر في العصر الأموي لئلا ما وصل إليه النثر الأندلسي في هذا العصر من رقى وازدهار ، وهو ابن شهيد الكاتب المشهور .

ابن شهيد

هو أحمد بن عبد الملك . . . بن شهيد الأشجعي القوطي ، ولد بقرطبة عام ٣٨٢ هـ وتوفي عام ٤٢٦ هـ^(١) وهو من بيت أدب ومجد ، كان جده وزير عبد الرحمن الناصر^(٢) وأديباً من أكبر الأدباء في عصره ، وورث عنه حفيده أدبه كما ورث عنه صلته الحسنة بالأمويين وإن لم يستوزروه لثقل كان في سمعه . ويظهر أنه ورث عن آبائه ما لا كثيراً بعثه في اللهو والخلاعة حتى ليقول أبو حيان : « إن البطالة غلبت عليه فلم يحفل في آثارها بضياح دين ولا مروءة »^(٣) . وهذا الشخص المترف الذي ساق حياته في اللهو والخلاعة كان مثقفاً ثقافة واسعة بمعارف عصره ، فقد ذكر في إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وصنعة وحكمة^(٤) ، ويقول ياقوت : « كان له من علم الطب نصيب وافر »^(٥) . على أن الجانب الذي تميز به إنما هو جانب الأدب فقد كان شاعراً كبيراً كما كان كاتباً كبيراً أيضاً ، ويدل ما روي عنه من آثار أن نثره كان أكبر من شعره ، وقد شهد له النقاد

(١) انظر ترجمته في المغرب (طبع دار

المعارف) وما بهامشها من مراجع ٧٨/١

(٢) نفع الطيب ١٧٩/١ .

(٣) الذخيرة ١/١٦١ .

(٤) الذخيرة ١/١٨٦ .

(٥) معجم الأدباء ٣/٢٢٣ .

بمقدرته فيه وتفوقه . كتب عنه الثعالبي فقال : «إن نثره في غاية الملاحاة»^(١) وقال أبو حيان : «كان أبو عامر بن شهيد يبلغ المعنى ولا يبطئ سفسر الكلام ، وإذا تأملته ولستسته ، وكيف يجز في البلاغة رسنه ، قلت : عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه . . . وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك . . . وله رسائل كثيرة في أنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وبقاها في الناس خالدة بعده»^(٢) . وقدم له صاحب الذخيرة بقوله : «كان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنهاها ، وينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستها وأساتها ، ومعنى أسمائها ومسمياتها ، نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هزل فسجج الحمام ، أو جد فزير الأسد الضرغام . نظم " كما اتسق الدر على النحور ، ونثر كما خلط المسك بالكافور ، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود ، تشقّ القلوب قبل الجلود ، وجواب يجرى مجرى النفس ، ويسبق رجح الطرف المختلس»^(٣) ومن قول صاحب المطمح فيه : «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها ، حائز قصب السبق فيها ، لا يشبهه أحد من أهل زمانه ، ولا ينسق ما نسق من درّ البيان وجمانه ، توغل في شعاب البلاغة وطرقها ، وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها ، لا يقاومه عمرو بن بحر ، ولا تراه يغترف إلا من بحر»^(٤) .

ونرى من هذه النصوص المختلفة أن النقاد كانوا يكبرون من شأن ابن شهيد ومنزلته الأدبية ، وقد قرنوه إلى الجاحظ لهزل كان فيه وميل إلى الفكاهة ، وأكبر الظن أنه يتأثر في هذا الجانب بديع الزمان فقد ذكره في رسائله^(٥) ، وكتب رسالة في الخلواء ذهب فيها مذهبه في المقامة المضميرية ، وحكى في التواضع والزواضع ما وصف به بديع الزمان الماء ثم أتى بأوصاف أخرى للماء يريد بها أن يثبت براعته^(٦)

- | | |
|---------------------------------------|---------------------|
| (١) اليتيمة ٤٣/٢ . | الجواب (ص ١٦) . |
| (٢) الذخيرة ١٦٠/١ . | (٥) الذخيرة ٢٠٣/١ . |
| (٣) الذخيرة ١٦٠/١ . | (٦) الذخيرة ٢٤٦/١ . |
| (٤) مطمح الأنفس لابن خاقان (طبع مطبعة | |

وأهم أثر تركه ابن شهيد هو رسالة التوايع والزوايع ، والتايع الجن والزويع الشيطان ، سماها بهذا الاسم لأنه بناها على شيطان تراءى له في وقت أرثج عليه فيه وهو ينظم شعراً فأجازه . ولما تعارفا طلب إليه ابن شهيد أن يلقي به شياطين الشعراء والكتاب الذين غبروا ، فأجاب طلبته ، وحمله على جناحه إلى وادي الجن حيث التقى بكثير من شياطين الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ، كما التقى بطائفة من شياطين كتّاب المشرق . وتدور القصة في الرسالة على أنه يلقي التايع للشاعر المشهور فينشده شعراً لصاحبه ، ثم ينشده ابن شهيد بعض شعره ، فيعجب به ويحيزه آية على قدرته البلاغية . وكذلك يلقي توايع الكتاب أمثال عبد الحميد والجاحظ وبديع الزمان فيعرض عليهم رسالته في وصف البرد والنار والحطب كما يعرض عليهم رسالته في الخلواء ، وأيضاً فإنه يعرض عليهم صفته لشعلب وأبرغوث ، ويستحسنون ما يعرض ويحيزونه . ووقف تابع الجاحظ عند سجعه ، وقال له إن كلامك نظم لا نثر فزعم أن تلك صفة أهل بلده وأنهم يعجبون بالسجع وطابعه ، وهكذا تنفض جموع الجن وهي تشهد بأنه شاعر بديع وكاتب بليغ .

والرسالة تفيض بروح الفكاهة كأن نراه يعرض لبركة ماء بإحدى جوانب وادي الجن ، ومن حوالها طائفة من حمر الجن وبغالها وتقدم له بغلة شهباء عليها جلُّها ويرقعها فتنشده بعض الشعر وأخيراً تقول له : « أما تعرفني أبا عامر؟ قلت : لو كانت ثم علامة ، فأماطت لثامها فإذا هي بغلة أبي عيسى ، والحال على خدّها ، فتبا كينا طويلا وأخذنا في ذكر أيامنا » . وما من شك في أن هذا الجانب في التوايع والزوايع يكسبها خفة ورشاقة ، ومن يرجع إليها يجد ابن شهيد لا يستخدم فيها دائماً أسلوب السجع بل تارة يسجع وتارة لا يسجع وهذا هو معنى قولنا إن الكاتب الكبير في الأندلس لم يكن يخضع في صنع نماذجه للمذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هو — على نحو ما نرى الآن عند ابن شهيد — كان يتقلب بين المذاهب والمناهج المختلفة . ومع ذلك فلا نظن أن ابن شهيد حين يستخدم السجع كان يستخدم البديع الذي هو الشق الثاني للمذهب التصنيع ،

فإنه لم يكن يتصور هذا المذهب بكافة تفاصيله كما تركه أصحابه . وليس معنى ذلك أنه لم يقرأ لهم ما يفهم به هذا المذهب ، بل لقد قرأ لهم كثيراً ، وخاصة الصابى وبديع الزمان^(١) ! وأيضاً ينبغي أن لا تظن أن ابن شهيد لم يخرج في جوانب من رسائله إلى مذهب التصنع ، بل لقد خرج إلى هذا المذهب في كثير من جوانبها ؛ إذ نراه يعنى باستخدام الغريب ، واعترف بذلك في إحدى رسائله^(٢) . وكان إلى ذلك يكثر من الأمثال^(٣) كما كان يكثر من المبالغات والتهويلات^(٤) والاقْتباس من القرآن الكريم^(٥) ، إلا أنه لم يعن بتعقيدات زخارف البديع جملة ، بل إنه لم يعن بهذه الزخارف نفسها كما تركها أصحاب مذهب التصنيع ، ومع ذلك فقد كان ذوقه أقرب ما يكون إلى ذوقهم ، وتطرق من هذا الذوق إلى العناية بالفكاهة في آثاره على نحو ما نجد عند بديع الزمان في مقاماته . وكما أطرف في رسالة التواضع والزواجع أطرف أيضاً في رسالة أخرى تسمى حانوت عطار ، ويظهر أنه كان يميل إلى الإغراب في الموضوع ، ولعل ذلك ما جعله يقف عند وصف ثعلب وبرغوث وبعوضة ، ومهما يكن فقد كان ابن شهيد أكبر أديب في عصره ، ولكنه لم يستطع المخالفة على مذاهب المشرق ومناهجه ، بل ذهب يقلد هذه المذاهب والمناهج في غير نظام ولا نسق معين .

٤

ملوك الطوائف ونهضة النثر الأندلسي

إذا تركنا عصر الأمراء الأمويين وانتقلنا إلى عصر ملوك الطوائف وجدنا الأندلس تنهض نهضة واسعة في أدبها من شعر ونثر ، وكأنا انقسامها إلى وحدات صغيرة أهلها لنشاط أدبي واسع إذ أصبح لكل وحدة صغيرة ، أو عبارة

(١) الذخيرة ٢٠٣/١ وكذلك ٢٠٧/١ . (٤) الذخيرة ١٧١/١ .

(٢) الذخيرة ٢٠٠/١ . (٥) الذخيرة ١٩١/١ وكذلك ٢١١/١ .

(٣) الذخيرة ١٩٣/١ وما بعدها .

أخرى ، لكل مدينة ، حاكم مستقل ، وسعى كل حاكم - بسبب ما بينه وبين الحكام الآخرين من تنافس - إلى تشجيع الحركة العلمية والأدبية في وطنه ومقر حكمه وملكه ، وبذلك أضفى انقسام الأندلس إلى دويلات على العلم والأدب تقدماً ورفقياً عظيماً . وإن الأندلس في ذلك لتشبه إيران في القرن الرابع الهجري حين توزعت دول وإمارات مختلفة ، فقد لاحظنا في غير هذا الموضع أن هذا التوزع وما صحبه من قيام مدن ومراكز كثيرة أهمل لنهضة أدبية رائعة ، وكذلك الشأن في الأندلس في أثناء القرن الخامس للهجرة ، فإن انقسامها إلى أندلسيات متعددة جعل مراكز النشاط الأدبي فيها تتعدد أيضاً ، وكان كل حاكم أو أمير يُعنى بأن يكون في بلاطه أهم كاتب في إقليمه ، ومن ثم أصبحت كل مدينة تشتهر بكاتب مهم إن لم يكن بطائفة من الكتاب ، وتعقب صاحب الذخيرة هذه الظاهرة فعرض لكتاب كل مدينة عرضاً مفصلاً ؛ ومن يرجع إليه في كتابه المذكور يلاحظ أن الكتاب كلهم غمرهم ذوق السجع ؛ فهم جميعاً يسجعون . وكان الكتاب في العصر الأموي يتخففون من السجع أحياناً كما رأينا عند ابن شهيد ، أما في هذا العصر فإنهم يلتزمون التزاماً ، بل قد يجد الإنسان في عصر الأمويين كاتباً لا يسجع مطلقاً وإنما يزواج مثل ابن بُرد الأكبر ، أما في هذا العصر فإن الكتاب جميعاً يسجعون ، ومن أروعهم في ذلك ابن برد الأصغر حفيد ابن برد الأكبر ، وقد روى له صاحب الذخيرة مجموعة كبيرة من رسائله كما روى له مناظره بين السيف والقلم ، ومن يقرأ المناظرة والرسائل لا يحس جديداً فقد جمدت الأندلس عند صياغة المشاركة ، ولم تستطع أن تضيف إليها من جديد ، وهل يستطيع الإنسان أن يجد في الذخيرة لهذا العهد اتجاهات جديدة أو لوناً جديداً ؟ إنه ليس هناك إلا التقليد والمحاكاة وأن يحتذى الكاتب على نموذج مشرق ، فإذا هو يصنع رسائل كرسائل المشاركة أو يصنع مقامة كمقاماتهم على نحو مقامة أبي حفص عمر بن الشهيد التي رواها صاحب الذخيرة . ونحن نلاحظ عند هؤلاء الكتاب عامة أنهم لم يعنوا بالبديع لكنهم استمروا - كما رأينا عند ابن شهيد - يعنون بالغريب وبالأمثال والاقتباس

من القرآن ، كما عنوا كثيراً بجلّ الشعر وتضمينه ، وليس معنى ذلك أنهم عقّدوا نثرهم على نحو ما رأينا عند أبي العلاء وأصحابه إذ إن حياتهم التي كانت تقوم على الفنّ من جهة وعلى الحروب مع المسيحيين من جهة أخرى لم تُثح لهم الفرصة للتأني والتمهل ، فلم يُطَبِّعْ أديبهم بطابع التعقيد ، وإن كان ذلك يظهر فيه من حين إلى حين ، ونحن نقف عند أهم كاتب ظهر في هذا العهد ، وهو ابن زيدون ، لنطلع على الصورة الفنية للكتابة حينئذ .

ابن زيدون

هو أحمد بن عبد الله . . بن زيدون المخزومي القرطبي^(١) ، ولد بقرطبة عام ٣٩٤ للهجرة وتوفي بإشبيلية عام ٤٦٣^(٢) ، وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة^(٣) ، ولما قامت الفتن في أواخر حكم الأمويين أسهم فيها إذ كان هواه مع الثائرين ، ومن أجل ذلك قربه أبو الحزم جهور أمير قرطبة إلا أن هذه المكاة لم تدم له طويلاً إذ نسبت إليه مؤامرة على السلطان وتصادف أن كان هناك أدبية شاعرة تتعلق بها ابن زيدون وهي ولادة بنت المستكفي ، ولما مطارحات ومجالس محفوظة^(٤) ، وكان ينافسه فيها ابن عبدوس فاصطدم كل منهما بالآخر ، وكان ابن زيدون كاتباً فكتب رسالة هزلية طويلة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس يزعم فيها أنه أرسل لها سيدة تمسحها لها ، وتحاول أن تعقد الصلة بينه وبينها ، فنهرتها نهراً شديداً ، ولم تكتف بذلك ، بل كتبت له هذه الرسالة وكلها تهكم به وسخرية . ولم يرد ابن عبدوس على خصمه برسالة أخرى بل دبّر له مؤامرة واسعة النطاق جعلت أبا الحزم بن جهور يحبسه ، وقد كتب إليه ابن زيدون من السجن برسالة طويلة تسمى الرسالة الحديدية يستعطفه بها ، وكذلك استعطفه برسائل وقصائد أخرى إلا أنه لم يرق له ، وأخيراً يعفو عنه مستجيباً فيه لشفاعته ابنه أبي الوليد ولما ولي بعده سنة ٤٣٥ اتخذه سفيراً بينه وبين رؤساء الأندلس

(١) انظر في ابن زيدون كتابنا عنه في سلسلة نوايغ الفكر العربي (طبع دار المعارف) . ٤٣/١ .
 (٢) وفيات الأعيان ٤٤/١ .
 (٣) الذخيرة ٢٩٠/١ وفيات الأعيان . ٤٣/١ .
 (٤) الذخيرة ٣٧٦/١ .

غير أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينهما ففر ابن زيدون على وجهه إلى إشبيلية عام ٤٤١ (١) ، فلقية أميرها المعتضد لقاء حسناً ، واصطنعه لنفسه كما اصطنعه ابنه المعتمد من بعده ، واستطاع المعتمد بفضل مشورته أن يستولى على قرطبة ، وما زال يرعاه خير رعاية حتى إذا كان عام ٤٦٣ أرسله إلى إشبيلية في مهمة إلا أن القدر عاجله ، ويقولون : إن أهل قرطبة حزنوا لوفاته حزناً شديداً .

وهذا كله يرينا أن حياة ابن زيدون كانت مليئة بمتعاب ومصاعب جمّة ، ومع ذلك فهو يوضع على رأس شعراء وكتّاب عصر ملوك الطوائف ، يقول صاحب الذخيرة فيه : « كان أبو الوليد بن زيدون غايةً منشور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، أحد من جرّ الأيام جرّاً ، وفات الأنام طرّاً ، وصرّف السلطان نفعاً وضراً ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحريّاته ، ولا للنجوم الزهّرة اقتارانه ، وحظ من النثر غريب الملباني شعريّ الألفاظ والمعاني » (٢) ، ويقول أيضاً : « فأما سعة ذرّعه وتدفق طبعه ، وغزارة بيانه ، ورقة حاشية لسانه ، فالصبح الذي لا ينكر ولا يبرد ، والرمل الذي لا يحصر ولا يُعَدُّ » (٣) ، ولعل أطرف ما ترك ابن زيدون من آثاره الكتابية هو الرسالة الجديّة ثم الرسالة الهزلية ، أما الرسالة الجديّة التي كتبها في الاستعطاف فهي تبدأ على هذا النمط :

« يا مولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، أبقاك الله ماضىَ حدِّ العزم وارىَ زَنَدَ الأمل ، ثابتَ عهد النعمة ، إن سلبتني - أعزك الله - لباسَ نعماتك ، وعطّلتني من حلتى إيناسك وأظمّأتني إلى برود إسعافك ، ونفّضتْ بي كسْفَ حياطتك ، وغضضتْ عنى طَرْفَ حمايتك ، بعد أن نظرتَ الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصمُّ ثنائى عليك (٤) »

(١) الذخيرة ١/٢٩١ ووفيات الأعيان ١/٤٣ . (٤) يشير إلى قول المتنبي :

(٢) الذخيرة ١/٢٨٩ . أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى

(٣) الذخيرة ١/٢٩٢ . وأسمعت كلمائى من به صم

وأحسَّ الجهاد باستحمادى إليك ، فلا غرو قد يَغْصُ بالماء شاربه ، ويقتل
الدواءُ المستشفَى به ، ويؤثى الحنْدِرُ من مآمنه^(١) ، وتكون منية المتحنى في
أمنيته ، والحنينُ قد يسبقُ جهده الحريص^(٢) :

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى وهون غيرَ شامته الحسادِ

وإني لأتجلد وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعض^(٣) ، فأقول :
هل أنا يدٌ إلا يد أدامها سوارها ،^(٤) وجبينُ عضه إكليله ومشرقى الصقه
بالأرض صاقله ، وسمهرىُّ عرضه على النار مثقّفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب
الذى يقول^(٥) :

فقساً ليزدَجِرُوا ومن يك حازماً فليقتسُ أحياناً على من يررحمُ

هذا العتبُ محمود عواقبه ، وهذه النسيوةُ غمرة ثم تنجلي^(٦) ، وهذه النكبة
سحابةٌ صيف عن قليل تقشع^(٧) ، ولن يريبنى من سيلى أن أبطأ سيبه ، أو
تأخر - غير ضنين - غناؤه ، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها^(٨) ، وأثقل السحاب
مشياً أحفلها ، وأنقع الحيا^(٩) ما صادف جندباً ، وألذ الشراب ما أصاب
غليلاً ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب .

وأكبر الظن أن خصائص ابن زيدون اتضحت لنا الآن ، فهو يعنى
عناية شديدة بحل الشعر في كلامه كما يعنى بالأمثال وحشدها حتى لتغدو

-
- (١) هذا المثل مقتبس من بيت لعدى بن زيد
العمادى .
(٢) مثل قديم . والحين : الموت .
(٣) مأخوذ من قول أبي ذؤيب :
وتجلدى للشامتين أريم
أنى لريب الدهر لا أتضعض
(٤) مأخوذ من قول المتنبي :
بنو كعب وما أثرت فيهم
يدٌ لم يدهما إلا السوار
- (٥) هو أبو تمام :
(٦) مأخوذ من قول بعضهم :
وما هى إلا غمرة ثم تنجلي
سريعاً وإلا نبوة تنصرم
(٧) مثل قديم . وتقشع : تقلع .
(٨) مثل أيضاً .
(٩) الحيا : المطر . أحفلها : أملؤها .

رسالته في حاجة إلى الشرح ، لأن كثيراً من عباراتها أمثال مرموزة وأبيات منثورة وشطور من الشعر مرصوفة . وهذا نفسه هو الذي يجعلنا نقول إن ذوق ابن زيدون في نثره كان قريباً من ذوق أصحاب التصنع في المشرق ، وحقاً هو لم يستخدم البديع ولا ما يتصل به من تعقيد بعض زخارفه ، ولكنه استخدم لغة مبهمة بعض الشيء . وإذا استمررنا معه في الرسالة وجدناه يلجأ إلى شيء أكثر صعوبة ، وهو ذكر كثير من وقائع القرآن الكريم وحوادث الإسلام الخفيف . ورأى هذا الجانب في الرسالة القديماً لأنهم عثروا به على مادة غنية للشرح والتفسير ، واستمع إليه بصور لابن جهور أنه لم يرتكب جرماً كبيراً فيستهدف لما مضى من جنایات وأحداث في الديانات ، على هذا النحو :

« قد بلغ السيل الزبى^(١) ، ونالني ما حسبي به وكفى ، وما إراني إلا أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح : اركب معنا ، فقلت : (سأوى إلى جبل يعصمني من الماء) وأمرتُ ببناء الصَّرح لعلِّي أطلع إلى إله موسى ، وعكفتُ على العجل ، واعتديت في السَّبْت ، وتعاطيت ففقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت ، وقُدْتُ القليل لأبرهة ، وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة ، وتأولت في بَيْعَةِ العقبه ، ونفرت إلى العير بيدر ، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد ، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قُرَيْظَةَ وجئت بالإفك على عائشة الصديقيّة ، وأنفت من إمارة أسامة وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فاسقة » .

وترك ابن زيدون هنا السجع لأنه لا يستقيم وما يريد أن يروي من هذه الأحداث وهي أحداث لا يفهمها إلا من قرأ سير الأنبياء والسيرة النبوية خاصة ، ولا بد له بعد ذلك أن يقرأ شيئاً عن حياة المسلمين بعد الإسلام . ونحن نراه في الرسالة ينتقل بعد ذلك إلى تملق ابن جهور مع شيء من الزهو والحيلاء ، وقد

(١) مثل يضرب حين يتفاقم الأمر : الزبى : جمع زبية . وهي الحفرة في المكان المرتفع .

امتد به نفسه طويلاً ، فأكثر من الحكم والأمثال ، كما أكثر من تضمين الشعر وحسنه في نثره ، وكذلك أكثر من اقتباس آي الذكر الحكيم . وما من ريب في أن هذه صورة أخرى من صور التصنع ، وهي صورة لا تبلغ ما بلغه المذهب في المشرق من تعقيد عند أبي العلاء وأصحابه ، ولكنها على كل حال تأخذ من التصنع بأطراف قوية . وتذهب هذا المذهب نفسه الرسالة الهزلية ، إذ نراه يسخر من ابن عبدوس متطرفاً في أثناء سخريته إلى ذكر كثير من الأمثال وحوادث التاريخ وأعلامه ، واستطاع في أثناء ذلك أن ينفذ إلى التأثير باللاحظ في رسالة التربيع والتدوير ، وانظر إليه يقول في بعض جوانبها عن السيدة التي أرسلها ابن عبدوس : إنها زعمت لولادة :

« أن بطليموس سوتى الأصبطر لآب بتديرك ، وصور الكرة على تقديرك ، وأبقراط عليم العلل والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك ، وكلاهما قلداك في العلاج ، وسألك عن المزاج ، واستوصفك تركيب الأعضاء ، واستشارك في الدواء والداء ، وأنتك نتهجت لأبي معشر طريق القضاء ، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء ، وأعطيت النظام أصلاً أدرك به الحقائق ، وجعلت للكندى رسماً استخراج به الدقائق ، وأن صناعة الألحان اختراعك ، وتأليف الأوتار والأنتغام توليدك وابتداعك ، وأن عبد الحميد بن يحيى بارى أفلامك ، وسهل بن هرون مدون كلامك وعمرو بن بحر مستمليك ، ومالك بن أنس مستفتيك ، وأنتك الذي أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحدد الماهية ، وبين الكيفية والكمية » .

والحق أنك مهما قرأت في آثار الأندلسيين فستراه يرجعون دائماً إلى أصول مشرقية يقلدونها ويستمدون منها ، إما في تنسيق الموضوع على نحو ما استفاد ابن زيدون من الجاحظ في رسالته الهزلية ، وإما في العناصر التي يؤلفون منها نماذجهم على نحو ما رأيناه في الرسالة الجدية ، إذ ذهب يستعين فيها بشعر لأبي ذؤيب والمتنبي وغيرهما ينثره في أثناءها وكما ذهب يستعين بأمثال قديمة . وهو يضيف إلى ذلك آيات من القرآن الكريم الفاظاً يجمّل بها عمله وأيضاً فإنه يتصنع للذكر

كثير من حوادث الديانات وخاصة حوادث الإسلام كما يتصنع لكثير من
أعلام التاريخ . وهذا هو الجديدي الذي كان يأتي به ابن زيدون لبيان تفوقه
وبراعته ، وهي أشياء كلها تُرَدُّ إلى المشرق ، وليس للأندلس فيها إلا فضل النموذج
الذي يجمعها بعضها إلى بعض ، فإذا هي تستوى في صورة أدبية خاصة ، ومع
ذلك فليس من شك في أن ابن زيدون يوضع في الطبقة الأولى من كتاب الأندلس
وأدبائها على مر العصور !

٥

جمود النثر الأندلسي

يذهب عصر ملوك الطوائف ونداخل منذ عام ٤٨٤ للهجرة في عصر جديد هو
عصر سلطان المغاربة ، إذ فزع الأندلسيون في حروبهم مع المسيحيين إلى
يوسف بن تاشفين صاحب دولة المرابطين لينصرهم عليهم ، فيذهب إليهم يرد
عنه كيد أعدائهم ، ولكنه لا يتركهم ، بل يُدخلهم في حوزته ، واستمرت
الأندلس تابعة لدولته حتى استولت عليها دولة الموحدين ، وقد اشتهرت الدولة
الأولى دولة المرابطين بالتعصب في مسائل الدين وأصبح للفقهاء في عصرها شأن
كبير ، إذ كان لهم أثر واسع في دخول البلاد في هذا الحكم الجديد ، وكان
المرابطون لذلك يعتدون بهم ، فهم عدتهم وعتادهم ، ومن أجل ذلك سلموا لهم
شئون الدولة فاضطهدوا المتفلسفة ورموهم بالزندقة وتعقبوهم في كل مكان . أما
دولة الموحدين فكان حكامها أوسع عقولا وتفكيراً وقد اشتهر من بينهم أبو يعقوب
يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) بحجة الفلسفة وأصحابها ، ومن
ظهر في عصر هذه الدولة ابن باجة وابن رشد وابن طفيل ، ونستمر حتى نلتقي
في القرن السابع ببني هود وكذلك ببني الأحمر أصحاب غرناطة .
واستطاعت الأندلس أن تتقدم في الحركة العقلية في أثناء تلك العصور ،

ولكنها لم تستطيع أن تتقدم في الحركة الأدبية ، إذ استعلى الفقهاء أول الأمر في الحكومة وأصبح الحكام يتخذون منهم كتابهم ، فطبعوا النثر بطابعهم العلمي الجامد ، وكانوا يسجعون في كتابتهم ، ويحلون سجعهم بالتصنع لبعض المصطلحات العلمية التي عرفوها في دراستهم ، وهم من هذه الوجهة أقرب إلى ذوق أصحاب التصنع في المشرق من كتاب عصر ملوك الطوائف ، ولعل مما يتصل بذلك أنهم تصنعوا في كتابتهم للبديع ، وما يتصل به من طباق وجناس ، وأخذوا يعممون السجع في الكتابة التاريخية ، وخاصة تلك التي تتصل بالترجمة للأدباء على نحو ما نجد في (الذخيرة) لابن بسام و (قلائد العقيان) و (مطمح الأنفس) لابن خاقان ، وقد جنح لسان الدين بن الخطيب ، إلى السجع في بعض جوانب من كتبه ، وكذلك صنع المقرئ في (نفتح الطيب) و (أزهار الرياض) ، وكل هذه الأعمال يحس الإنسان فيها بضرور مختلفة من التلفيق والتصنع واللف والدوران حول المعاني والصور التي يجترُّها الأدباء اجتراراً ، وقد سرّت حينئذ ظاهرة مهمة ، وهي التعبير بالأساليب المحفوظة التي لا تفصح عن فكرة محدودة ، وارجع إلى الذخيرة أو إلى مطمح الأنفس أو إلى قلائد العقيان ، فسترى هناك مقدمات يقدم بها الأدباء لا تعبر عن معان واضحة وإنما تعبر عن صور جامدة متبلورة ، وهذا هو معنى ما نقوله من جمود النثر الأندلسي ، والبحث ما شئت في هذه العصور فلن تجد جديداً ولا ما يشبه الحديد ، إنما تجد أدباً مكرراً معاداً ، قد كررت أساليبه وأعيدت عباراته مئات المرات بل آلاف المرات ، ولا جديد فيه إلا ما يتصنع له الكاتب من مصطلح علمي ، أو لون بديعي ، أو إشارة إلى مثل ، أو استخدام لغريب ، أو نحو ذلك مما كان يعد آية في هذه العصور على بلاغة الكاتب ومهارته الفنية ، ونحن نقف قليلاً عند أهم كاتب ظهر في الأندلس لهذه العهود ، ونقصد لسان الدين بن الخطيب لتتكشف لنا صورة الكتابة الفنية حينئذ انكشافاً تاماً .

لسان الدين بن الخطيب

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي ، ولد عام ٧١٣ للهجرة ، وهو من بيت عُرِفَ قديماً ببني الوزير وحديثاً ببني الخطيب^(١) ، وهو بيت اشتهر بالعلم والفقهِ والأدب والطب ، وقد روى صاحب نفع الطيب لأبيه شعراً منه قوله^(٢) :

الطِبُّ والشعرُ والكتابه سمانا في بني النجابه

وقد نسج لسان الدين على منوال أبيه ، فكان « نفيس العُدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقليّة »^(٣) ، وقد ذكره ابن خلدون وهو معاصر له فقال : « قرأ وتأدب على مشيخة غرناطة ، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُدَيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرز في الطب ، وانتحل الأدب ، وأخذ عن أشياخه ، وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه ، ونبغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيهما ، وامتح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره ، وملاً الدنيا بمداخحه ، وانتشرت في الآفاق ، فرقاه السلطان إلى خدمته ، وأثبتته في ديوان الكتابة ببابه مرزوساً بأبي الحسن بن الجيّاب شيخ العُدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية »^(٤) ، فلما توفي ابن الجيّاب ورث رتبته من بعده^(٥) ، ثم توفي أبو الحجاج فازدادت منزلته عند ابنه أبي عبد الله إلى أن نشبت ثورة أبعدت السلطان عن عرشه وقبض فيها على ابن الخطيب وصودرت أملاكه ، ولكنه تخلص من ذلك بشفاعه السلطان أبي سالم المريني صاحب المغرب ولحق بسيدته أبي عبد الله هناك وصحبه في غربته . ولما رجع أبو عبد الله أخيراً إلى عرشه في غرناطة ، استدعاه وألقى إليه بمقاليد الملك والسياسة « وانفرد بالحل »

(٤) تاريخ ابن خلدون ٧/٣٣٢ .

(٥) نفس المصدر ٧/٣٣٣ .

(١) نفع الطيب ٣/٣ .

(٢) نفس المصدر ٧/٣ .

(٣) نفع الطيب ٣/٣٣٤ .

والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعُلِّقَت عليه الآمال ، وغشِيَ بابَه الخاصة والكافة ، وغصَّت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السَّعاية فيه « (١) ، وأحسَّ لسان الدين بذلك ففرَّ إلى أبي فارس المربني وكان قد ملك تلمسان فأكرمه (٢) إلا أن رجال حاشيته سرعان ما أوغروا صدره عليه إذ اتهموه بالزندقة ، فألتي به في غياهب السجون ودُسَّ إليه من قتله عام ٧٧٦ ، وبذلك انتهت حياته هذه النهاية الدامية .

وقد كان لسان الدين أبرع كاتب أخرجته الأندلس في عصورها الأخيرة حتى قيل : إنه كاتب الأرض إلى يوم العرض ، وخصَّصَ له المقرئ مجلدين من نفع الطيب عرض فيهما عرضاً واسعاً لأساتذته وحياته السياسية والأدبية . وإذا كان لسان الدين لم ينجح في حياته السياسية فقد نجح نجاحاً عظيماً في حياته الأدبية ، وهي حياة كانت منوعة ، إذ لم يقف بكتابته عند الرسائل الديوانية أو الشخصية ، بل كتب كتباً كبيرة في التاريخ والتصوف والموسيقى والفقه والطب ، وقد نهج لسان الدين في هذه الكتب نهج السجع وإن كان لا يلتزمه دائماً على نحو ما نعرف في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة) وهو مطبوع فإنه قلما يسجع فيه . ومن يرجع إلى رسائله يجدها تمتاز بالإطناب المسرف ، وما يُطَوَّى في هذا الأطناب عادة من لفٍّ ودوران يجعلنا نذكر أصحاب التصنع في المشرق ، وإنه ليتسع بإطنابه حتى يفقد قارته نشاطه لأن منظر المعاني ينسبط أمام بصره انبساطاً يخرجها من حيز التنوع إلى حيز الاستمرار والإملال ، وتنبه لذلك بعض السابقين فقال : « هو كاتب مترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار ، الذي لا يتخلو من عثار ، والإطناب ، الذي يفضي إلى الاجتناب ، والإسهاب ، الذي يقْدُ الإهاب » (٣) ، وليست ظاهرة الإطناب هي كل ما اقترضه في سجعه برسائله من أصحاب التصنع من المشاركة ، بل تقرن بها ظاهرة أخرى معروفة لديهم ، وهي ظاهرة التصنع لمصطلحات العلوم

(١) تاريخ ابن خلدون ٣٣٥/٧ .

١٩٣/١ .

(٢) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف)

(٣) نفع الطيب ٣٣٥/٣ .

وخاصة العلوم اللغوية ، وحقاً إن ابن الخطيب لا يكثر منها ، ولكنها موجودة — على كل حال — في نثره ورسائله ، ونحن ننقل إلى القارئ صدر رسالة كتب بها عن سلطانه إلى خليفة الموحدين بالأندلس ، وهي رسالة طويلة تقع في نحو عشرين صحيفة من القطع الكبير وهو يستلها على هذا النمط ^(١) :

« الخلافة التي ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستقلت مباني فخرها الشائع ، وعزها الذائع ، على ما أسسه الأخلاف ، ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم ، الاعتراف ، وسعت الآملين لها الجوانب الرجبية والأكناف ، فامتزجتنا بعلاؤها المنيف ، وولائها الشريف ، كما امتزج الماء والسلاف ، وثناؤنا على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرجت الرياض الأفواف ، لما زارها الغمام الوكّاف ، ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشرف ، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العميمة ، لا تحصره الحدود ، ولا تدركه الأوصاف ، وإن عَدَرَ في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير ، الحق والإنصاف » .

واستمر لسان الدين في هذه المقدمة طويلاً ، ونحن نكتفي بهذه القطعة منها لأننا نستطيع أن نتبين فيها الصفات العامة لسان الدين ، فهو يعتمد على السجع ، وهو يعتمد على التصنع لبعض مصطلحات العلوم ، إذ تصنع لألفاظ القواعد والمباني والجزم والحدود ، وليس ذلك كل ما يميزه في هذه القطعة ، فهناك جانب لعله أهم وأدخل في باب التصنع ، وذلك أنه يني سجعاته في هذه القطعة كلها على الفاء ، ولكن تأمل في القطعة فإنك تراه استخراج من كل سجعة سجعتين داخليتين ، وما من شك في أن هذا ضرب جديد من التصعيب ، وصل إليه لسان الدين لأنه يريد أن يثبت تفوقه في عصره ، فإذا هو لا يسجع سجعاً بسيطاً على طريقة الكتاب الأندلسيين من قبله ، وإنما يسجع هذا السجع المركب إن صح هذا التعبير ، واستمر معه في الرسالة فستره يصف حصار

(١) انظر الرسالة بأكملها في صبح الأعشى

سلطانه لقرطبة على هذا النحو :

« ثم تأهنا لغزو أم القرى الكافرة ، وخزائن المزاين الوافرة ، ورببة الشهرة
السافرة والأنباء المسافرة ، قرطبة ، وما أدراك ماهيه ، ذات الأرجاء الحالية
الكاسية ، والأطواد الراسخة ، والمباني المباهية ، والزهراء الزاهية ، والمحاسن غير
المتناهية ، حيث هالةُ بدر السماء ، قد استدارت من السور المشيد البناء ونهر
البحر من نهرها الفيض ، المسلول حسامه من غُمود الغياض ، قد لصق بها
جاراً ، وذلك الدولاب ، المعتدل الانقلاب ، قد استقام مداراً ، ورجع الحنين
اشتياقاً إلى الحبيب الأول وادِّكاراً ، حيث الطَّودُ كالتاج ، يزدان بلُجَيْنِ العذب
المُجاج ، فيزرى بتاج كسرى ودارا ، حيث قِسيُّ الجسور المديرة ، كأنها عوج
المطىِّ الغريرة ، تعبر النهر قطاراً ، حيث آثار العامريِّ المجاهد ، تعَبَّقُ بين تلك
المعاهد شَدَىِّ معطارا ، حيث كرائم السحاب ، تزور عرائس الرياض الحباب ،
فتحمل لها من الدرِّ نثارا ، حيث شَمولُ الشَّمال تدار على الأدواح ، بالغُدِّو
والرَّواح ، فترى الغصون سُكاري وما هي بسكاري ، حيث أيدي الافتتاح ،
تفتضُّ من شقائق البطاح ، أبكارا ، حيث ثغور الأقاح الباسم ، تقبلها بالسحر
زوار النواسم ، فتخفق قلوب النجوم الغياري ، حيث المصلَّى العتيق قد رحبُ
مجالا وطال مناراً ، وأزرى ببلاط الوليد احتقاراً ، حيث الظهور الماثرة بسلاح
الفلاح تجبَّ عن مثل أسنمة المهارى ، والبطون كأنها - لتدميث الغمام - بطون
العدارى » .

وأنت ترى لسان الدين في هذه القطعة يلتزم لازمة السجع المركب التي
لاحظناها في القطعة السابقة ، وقد ظهرت هنا عليه آثار التكلف بأوسع مما ظهرت
في القطعة السالفة لأنه كان هناك بادئاً للرسالة ، أما هنا فقد طال به النفس
فظهرت علامات التعب عليه ، وكلمة التعب لا تكفى ، فإن ما أداه في هذه
القطعة لا تنهض به هذه الكلمة ، وإنما تنهض به كلمة أخرى كالتصعيب أو
التعقيد . والحق أن لسان الدين كان يسعى حينئذ في أعماله إلى التمسك بأهداب
مذهب التصنع الذى شاع في المشرق ، وقد ذهب يقترح على الكتَّاب هذا

السجع المركب ليدل على مبلغ تفننه وجودة ترسله ، وإنه ليضيف إلى ذلك تكلفاً واسعاً لألوان البديع وزخارفه ، وخاصة السجع والجناس ، وكان يُشعّفُ - كما نرى في هذه القطعة - بالجناس الناقص ، ولكن لا تظن أن هذا هو منهج لسان الدين الدائم ، فقد كان الكاتب الأندلسي يتنقل بين المفاهيم المختلفة للمشاركة ، ومن أجل ذلك كنت ترى عند لسان الدين رسائل كهذه الرسالة تندمج في ذوق أصحاب التصنع ، وما تلبث أن ترى له رسائل أخرى تندمج في ذوق أصحاب التصنيع ، وقد ينفر من الدوقين جميعاً كما نرى في كتابه (الإحاطة) . وإذاً فابن الخطيب لا يرتبط بمذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هو يتنقل بين هذه المذاهب ، وإن كان أقرب مذهب إلى ذوقه وذوق عصره هو مذهب أصحاب التصنع ، ولكن ذلك لا يمنع أن نجد عنده نماذج يحاكي بها أصحاب الصنعة والتصنيع ، وهذا شيء لا يختص بلسان الدين ولا بماذجه ، بل هو عام في الأندلس لعصره وقبل عصره ، فداًئماً نجد الكاتب الواحد تتوزعه مذاهب المشرق المختلفة ، وغاية ما في الأمر أن الأندلسيين كان يغلب عليهم في العصر الأموي ذوق أصحاب الصنعة ، بينما كان يغلب عليهم في عصر ملوك الطوائف ذوق أصحاب التصنيع ، أما بعد ذلك فقد غلب عليهم ذوق أصحاب التصنع ، ومع ذلك فقد درسنا ابن شهيد فوجدناه يتوزعه المذاهب الأولان ، بينما كان ابن زيدون في عصر ساد فيه ذوق التصنيع ، ومع ذلك فقد رأيناه في بعض رسائله ينحو نحو أصحاب التصنع من بعض الوجوه ، وهذا لسان الدين ذوقه وذوق عصره تصنع ، واندمج في التصنع ، ومع ذلك فله رسائل تخلو من هذا التصنع ، بل قد تخلو من التصنع والتصنيع جميعاً ، وهذا نفسه هو ما نريد أن نصل إليه ، وهو أن الكتّاب في الأندلس كانوا يخلطون في محاكاة المذاهب المشرقية ونماذجها ، فلم يتقيد أحد منهم بمذهب معين من جهة ولم يدرسوا مذاهب المشرق دراسة علمية منظمة من جهة أخرى ، بحيث تتيح لهم هذه الدراسة أن يتكروا مذهباً أو يستحدثوا اتجاهات ، فقد كانوا جميعاً يعيشون في إطار المذاهب المشرقية معيشة تجعلنا نزعم أن أصول هذه المذاهب كانت أثبت وأروع في تاريخ النثر العربي من أن تصيبها الأقاليم المختلفة بتبديل أو تغيير .